مكة المكرمة وفقاً لتقرير رحلتين إسبانيتين

في القرن التاسع عشر

رحلـــــة Domingo Badia

ورحلة Urrestarzu Francisco

إعـداد

أ.د. سعيد ابن الأحرش

أستاذ التعليم العالي

تخصص : الأدب العربي في المغرب و الأندلس، مع الاهتمام بالثقافة العربية الإسبانية- جامعة عبد المالك السعدي . كلية الآداب . تطوان. المغرب .

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

تمهيـــد :

الرحلة بصفة عامة انتقال في الزمان والمكان، قصد الاطلاع على آفاق جديدة من المناطق المجهولة، وقد يصل الأمر بصاحبها إلى تسجيل أهم ما يتعلق بها في ما يصبح وثيقة تاريخية وجغرافية واجتماعية ودينية وروحية، تفيد الباحث في معرفة مرحلة دقيقة من تاريخ الجهة التي زارها الرحالة

أو المبعوث، وخلدها في تقاييده. وهكذا فالرحلة تقرب الواقع المراد دراسته ومعرفته، ولذلك دأبت النخب الحاكمة على تشجيع مواطنيها الذين اشتهروا بالترحال و الضرب في الآفاق على كتابة تقارير رحلاتهم لتستشف من خلالها وضعية الأمم، وذهنياتها، وعقلياتها وتطورها عبر الزمان و المكان، ولهذا اعتبرت كتب الرحلات وتقارير المبعوثين أهم قناة لمعرفة الآخر.[1]

***

(١) د. سعيد ابن الأحرش . الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة وتركيا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . نشر ضمن بحوث ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي/ مكتبة الملك عبد العزيز العامة ١٤٢٠ هـ / أكتوبر١٩٩٩م و حسين محمد فهيم : أدب الرحلات . عالم المعرفة، العدد ١٨٨ (يونيو عام ١٩٨٩ ص: ١٨) .

العالم الإسلامي مرئيا بعيون إسبانية

أولا : صورة المسلم في الذهنية الإسبانية في العصر الوسيط

لمعرفة صورة المسلم في الذهنية الإسبانية الوسيطية ، ومدى صواب اعتماد الروايات و المدونات و الرحلات الإسبانية القديمة في تشكيل رؤية الآخر نحو المسلم، علينا أن نلم بتلك التقارير، والرحلات الإسبانية، قصد إظهار ما كان خافيا علينا في هذه التقارير و الرحلات، ولنرى كيف كان الإنسان المسلم يتحرك فيها علمياً وفنياً وفكرياً وحضارياً. ففي تلك التقارير و المدونات العديد من المفاتيح من شأنها أن تفتح أبوابا وآفاقا فسيحة الأرجاء، [١]

فالمسلم في تقارير الإخباريين النصارى كان يسمى "بالمورو " El moro عدو الله اللدود، و عدو نصارى الأندلس، وعدو المسيح، لذا وجب اجتثاثه من جذوره ، والقضاء عليه [٢] أضف إلى ذلك أن هذا المسلم يعيش على المكر، و الخداع و الغش . وتضيف هذه التقارير فتقول: وهذا هو سر فشل النصارى في المعارك وانهزامهم .[٣] .

---

(١) أغلب المدونات التاريخية و الروايات الإخبارية القشتالية تنتمي إلى فئة خاصة من أصحاب التاريخ وشيوخ الأخبار، وهم بدورهم ينتمون إلى الكنيسة و البلاط الملكي في آن واحد. .ينظر في هذا الشأن دراسة : Bernard RichardM L islam et les musulmans chez les croniqueur castillan du milieu du moyen age. Hesperes Tamuda vol.XII. Rabat.١٩٧١ p ١٠٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أغلب المدونات التاريخية و الروايات الإخبارية القشتالية تنتمي إلى فئة خاصة من أصحاب التاريخ =

ولعل ما يفسر الأوج السردي في تقارير الإسبان هو ذلك الصراع العنيف الذي احتدم بين المسلمين والنصارى في إسبانيا ودام أمداً من الدهر، هذا الصراع كان يفرض عليهم نوعا من الدعاية الحربية.[١]

ثانيا : صورة المسلم في الذهنية الإسبانية في العصر الحديث:

وفي العصر الحديث ازداد احتدام ذلك الصراع بين الإسبان والمسلمين المغاربة، ونشطت حركة الرحلات من داخل إسبانيا إلى إلى البلاد العربية، خاصة بعد تخليها عن الاهتمام بأمريكا اللاتينية، التي شغلتها طويلا، ومن غير فائدة ، وتطوعت شخصيات للقيام برحلات استكشافية، ومسح شامل للعديد من الجهات من شمال إفريقيا، تسهيلا لعملي غزو المغرب . ومن تلك الشخصيات المغامرة التي تطوعت للقيام بواجب الاكتشاف وتقديم المعلومات اللازمة Urrestarzu Francisco و Domingo Badia.

اتجهت أنظار هذين المغامرين أول الأمر إلى المغرب، ففتحا باب الصراع التقليدي بين إسبانيا و المغرب من جديد، وزاد من تأجيج نار هذا الصراع دعواتُ الرهبان وصلواتهم في كافة أرجاء إسبانيا والبرتغال، انتهت باحتلال لشبونة ومدريد لعدد من مدن الشواطئ

=

وشيوخ الأخبار، وهم بدورهم ينتمون إلى الكنيسة و البلاط الملكي في آن واحد. .ينظر في هذا الشأن دراسة : Bernard RichardM L islam et les musulmans chez les croniqueur castillan du milieu du moyen age. Hesperes Tamuda vol.XII. Rabat.١٩٧١ p ١٠٨.

(١) المرجع نفسه.

المغربية ، كسبتة والعرائش وأصيلة و الجديدة والصويرة. [١]

هـذا بالنسبة للمغرب وبعض الجهات في شمال إفريقيا ، أما بالنسبة للجزيرة العربية ، والحجاز بالذات، فلم تكن إسبانيا ، وإلى حدود القرن التاسع عشر ، قد وجهت اهتمامها إلى هذه النواحي و الجهات، ولم تكن قد توفرت لديها المعلومات الكافية حول منطقة الحجاز القلب النابض للعالم الإسلامي، إلا ما عرفته من خلال بعض الجغرافيين العرب كالادريسي[٢]وأبي الفدا (٨)[٣].ابن بطوطة[٤]، أو من خلال المعطيات و المعلومات التي يقدمها بعض الرحالة الأوربيين الذين سبقوا الإسبان إلى هذه المنطقة كمذكرات فيلدWILD النمساوي التي نشرت عام ١٦٠٤ م وكانت حول مكة والمدينة ، [٥]، و كتاب فارطيما VARTHEMA الغني بالمعطيات

---

(١) بعد طرد المسلمين من إسبانيا، راح ملوكها يفكرون في مطاردة المسلمين و اللحاق بهم في مهجرهم، فكانت المدن المغربية هدفا لأطماع الاسبان وجيرانهم البرتغال، خاصة في القرن السادس عشر و السابع عشر فصاعدا. فكانت مدينة سبتة السليبة أولى المدن المغربية تقع في قبضة النصارى.

(٢) هو أبو عبد الله الشريف، مغربي من سبتة. درس بقرطبة، وبرع في الهيئة و الجغرافيا و الطب،ة استقر في صقلية، وهناك صنع لملكها روجه الكرة الأرضية من الفضة وهو صاحب رحلة "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

(٣) هو إسماعيل بن علي بن أيوب. عالم، أديب. له المختصر في أخبار البشر، وتقويم البلدان.معجم المؤلفين ج / ٢ ص: ٢٨٢ .

(٤) هو محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي. رحالة مشهور، جاب أقطار المعمور. له رحلة مطبوعة واسمها : تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(٥) د. عبد الحفيظ حمان : الحياة العامة في منطقة الحجاز من خلال رحلة دومنجو باديا. مجلة التاريخ العربي. العدد الثالث و العشرون . ص ٣٠ هوامش ١،٢،٣ صيف ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٤ م.

الجغرافيـــة والاجتماعيـــة والبـــشرية و الدينيـــة ،[١] . وباســـتثناء هـــذه المـــذكرات و التقـــارير، لا تكـــاد تجـــد معلومـــة ذات أهميـــة عـــن بـــلاد العرب وخاصة مكة و المدينة .

وبحلـول القـرن التاسـع عـشر، زاد اهتمـام إسـبانيا بـبلاد الحجـاز، خاصـة بعـد ظهـور الحركـة الوهابيـة الـتي كـان لهـا تأثيرهـا في العـالمين: الإسلامي

و المـسيحي، دينيـاً و سياسـياً و عـسكرياً. ومـن هنـا أصـبحت منطقـة الحجـاز مطمـح أنفـس الرحالـة الأسـبان، ومـسرح مغـامراتهم، ومرتـع أطماعهم.

ونظـراً لكثـرة التقـارير، وتعـدد الـرحلات والأدلـة الـتي كتبـت عـــن الـــبلاد العربيـــــة والحجـــاز خاصـــة، وامتـــدادها والزمـــاني و المكـــاني، [٢] فـــإن البحـــث ســـيكتفي بمجـــرد الإســـهام في التعريـــف بـــرحلتين إســـبانيتين إلى الحجـاز، أولاهمـا رحلـة Domingo Badia، واسمـه المـستعار :علـي بـاي العباسـي، وثانيتهمـا رحلـة : الطالـب سـيدي عبـد القـادر بـن الجيلالـي، واسمـه الحقيقـي : Orrestarzu Francisco

(١) المرجع نفسه.

(٢) من تلك التقارير و الرحلات المحفوظة في الارشيفات و الدوريات المتخصصة:

ـ المغـرب العربـي في تقـارير الرحالـة الإنجليـز، في القـرون :١٦، ١٧، ١٨ موثـق جـدا لمؤلفـه: R. Lebel .ينظر مجلة هسبريس ١٩٢٩ م المجلد ٩ ص ٢٦٩ وما بعدها

ـ المـشروعات الأخـيرة و الرحلـة الأخـيرة لـدومنكو باديـا Doming Badia ١٨١٥ م١٨١٧ م Revu Africaine ص ٣٦، ٩١ عام ١٩٣٠ م

. رحلات وملاحظات تتصل ببلاد العرب لمؤلفه Th Shaw

. رحلة السيد شو M. Shaw لاهاي ١٧٤٣م .

هذا ، لكونها تُقدم للقارئ العربي لأول مرة.[١] على أن يركز البحث في النهاية على رحلة عبد القادر الجيلالي .

ثم إنه ليس من هدف هذا البحث أيضا استيعاب كل ما احتوته رحلة الطالب عبد القادر بن الجيلالي إلى الحجاز من مشاهدات وتقاييد وملاحظات، فذلك أمر يطول ومهمة شاقة، .وإنما القصد هو تعريف القارئ العربي بهذه الرحلة المكتوبة باللغة الإسبانية، وبصاحبها وبمحتواها العلمي و المعرفي، وخاصة المعلومات المتعلقة بمكة المكرمة . مما يدخل في باب مصادر المعلومات عن مكة المكرمة من وجهة نظر الغربيين.

التعريف ببادیا دومنكو ورحلته:

أ ـ التعريف ببادیا دومنكو :

تُعرف الرحلة في الأوساط العربية باسم كاتبها المستعار علي باي العباسي، وهوDomingo Badia y Leblich، من مواليد برشلونة [٢] .بشمال شرق إسبانيا عام ١٧٦٦ م، وبها ترعرع ونشأ . كان والده يعمل هناك أمينا في الجهاز المالي، بعد ذلك، ارتحل صحبة أبيه إلى غرناطة[٣] ثم إلى إلبيرة، في

---

(١) سبق أن عرف برحلة باديا دومنكو كل من الدكتور الطاهر أحمد مكي في مجلة الفكر العربي ع: ٥١ يونيو ١٩٨٨م ببحث عنوانه "أول رحالة إسباني يزورالعالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر.ط ود. عبد الحفيظ حمان: في أعمال ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي. الرياض ١٤٢٠هـ ومجلة التاريخ العربي، العدد الثالث والعشرون، صيف ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م

(٢) مرفأ إسباني على المتوسط وهو قاعدة إقليم كاطالونيا ،و المركز الصناعي الأول في للبلاد.

(٣) كانت آخر القواعد الأندلسية الذاهبة، وهي عند الاسبان أنبل المدن الأندلسية، لأنها مثوى =

مقاطعة ألمرية[1] حيث عين هنالك خلفاً لوالده في وظيفته التي كان يشغلها . وحوالي ١٧٧٩م انتقل باديا إلى قرطبة ليشغل منصب مدير الاحتكارات الملكية للتبغ . وكان لمدينة قرطبة، بما تحويه من معالم إسلامية خالدة، الأثر القوي في توجيه باديا إلى الاهتمام بحضارة العرب ومدنيتهم.[2]

و مؤلف الرحلة رجل عالم، له مشاركة في أصناف العلوم وألوان الفنون، خاصة علم التاريخ و الفلك و الرياضيات و الفيزياء، وسائر المعارف التي من شأنها فتح المجال لجمع المعلومات وتسجيل الملاحظات.

وبالإضافة إلى هذا كله، تعلم باديا، على عادة الرحالين إلى البلاد المجهولة، لغة وعادات تلك البلاد المقصودة، فتعلم اللغة العربية، وأجاد النطق بها وألم بالإسلام وتاريخه، و أحاط بالفقه الإسلامي و العادات و التقاليد والأعراف وهلم جرا مما يُسهّل له تخطي الصعوبات، واجتياز العقبات التي عادة ما تعترض طريق الرحالة الأوروبي النصراني.

هذه الثقافة المتنوعة المعارف، والاطلاع الواسع ساعداه على

=

فاتحيها الملكين الكاثوليكيين إيزابيل وفرناندو محمد عبد الله عنان الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا و البرتغال الطبعة القانية ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م

(١) إلبيرة مدينة، كانت في العهد الإسلامي من أهم مدن الأندلس . الآثار الأندلسية الباقية إسبانيا .عبد الله عنان ط.٢،١٩٦١ م

(٢) حول ترجمة دومنكو باديا ومصادر حياته ينظر كتاب : رحلات إسبانية إلى الإسكندرية لمؤلفه غارسيا دي هيرّشيرو ط ١٩٢٣. مدريد

الولوج، وبنجاح ، في المجتمعات الإسلامية التي جاب ربوعها ، وقطع مفازاتها في صورة مسلم، عابد، متبتل .

وحينما قرر باديا دومنكو تنفيذ مشروعه، لبس اللباس العربي الإسلامي، وأرسل اللحية، وتكلم اللغة العربية الفصحى والعامية المغربية، وأتقن اللسان البربري، وأجرى عملية الختان، وحمل السبحة، وارتدى البلغة المغربية، وأحاط رأسه بعمامة فاخرة.

ب - التعريف بالرحلة :

رحلة باديا دومنكو، واسمها الحقيقي: "رحلات علي باي العباسي إلى أفريقيا وآسيا خلال ١٨٠٣و م ١٨٠٧. م صدرت في باريس في ثلاثة أجزاء باللغة الفرنسية، تم ترجمت بعد ذلك إلى الإنجليزية و الألمانية، وصدرت في جزأين تحت عنوان : "رحلات علي باي في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وتركيا بين أعوام ١٨٠٣ م و١٨٠٧ م، ثم جاءت الطبعة الإيطالية في أربعة أجزاء، صدرت عام ١٨١٦ م، أما الطبعة الإسبانية الأم، فلم يسبق نشرها إلا في عام ١٨٣٦ م.[1]

التعريف بأرِّستارثو فرانسيسكو ورحلته

أ ـ التعريف بأرِّستارثو:

المعلومات حول أرستارثو فرانسيسكو وحياته قليلة وشحيحة، و كل ما نعرفه عنه هو تلك المعلومات والشذرات التي التقطناها من

---

(١) الطاهر أحمد مكي : أول رحالة إسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر. مجلة الفكر العربي العدد ٥١ يونيو ١٩٨٨ ص ١٨٨.

رحلته الحجازية التي وقفنا على محتوياتها ومضامينها، وأمدتنا ببعض الإشارات فهو Francisco Urrstarzu ولد بإحدى مدن شمال شبه جزيرة إيبريا، كان أستاذاً للغات، و مدرساً للعديد من اللهجات، وخاصة اللهجة المغربية التي أتقنها، وأجاد النطق بها .

شب أرِّستارثو على حب الترحال و التجوال، فساح في أرجاء إسبانيا والبرتغال، ثم عبر بوغاز جبل طارق ليحل بالمغرب، الذي طالت به إقامته، يراقب ويشاهد، حتى توفرت له شروط الرحلة إلى الحجاز التي استغرقت منه مدة ليست بالقصيرة .

ـ ب ـ التعريف بالرحلة :

خلف أريستارثو فرانسيسكو رحلتين . الأولى وعنوانها: "رحلة الطالب عبد القادر الجيلالي إلى المغرب" . و الثانية : "رحلة الطالب ابن الجيلالي إلى بلاد العرب، فله إذن رحلتان، رحلة مغربية ورحلة حجازية.

استهل أُرِّستارثو رحلته بتحديد غايتها، فبين أن هدفها هو الرغبة في مشاهدة أقطار البلاد الإسلامية، و التجول في بقاعها، وتسجيل الانطباعات عنها، والكشف عن حياة الناس، وعادات السكان في المأكل و الملبس والسكن، وكذا الرواج التجاري والاقتصادي، والمستوى الثقافي، وأشكال البناء، ومظاهر العيش، بدءاً من المحيط إلى الخليج. ثم شرح أسباب التأليف وظروف التصنيف وملابساته، والمنهج الذي سار عليه في جمع مادة رحلته وتركيبها وتبويبها، فقسمها إلى مقدمة ، وثلاثة أقسام. طبعت

الرحلة بمدريد عام ١٨٧٨ وهي اليوم طبعة نافذة، لا يسمح باستعارتها ولا باستنساخها.

المضمون المكي في الرحلتين:

تلتقي الرحلتان في كثير من الموضوعات و الصور التي يقدمها المؤلفان عن البلاد الإسلامية التي مرَّا بها في طريقهما إلى الحجاز وروداً وصدوراً، ولعل من الموضوعات الطريفة في الرحلتين حديث الرحَّالتين عن مراحل سفرهما بالحجاز، وارتساما تهما عن واقع البلاد، ففي الرحلتين معلومات مهمة نادرة عن هذه الجهة من العالم الإسلامي، وعن حياة الناس بها .

ونظراً لأهمية المضمون المكي في الرحلتين، ارتأينا أن نقدم عرضاً في الموضوع، تكون وظيفته دراسة مكة المكروم، و دراسة شؤون الحياة العامة يومئذ من خلال المجالات الآتية .

أ - المجال الجغرافي:

عالجت الفقرات التي خصصها الرحالتان للحديث عن مكة المكرمة الجانب الطبيعي و الطبوغرافي للمدينة: من تحديد للموقع، وذكر للجبال، وتكوينها الجيولوجي، ثم مناخ مكة داخل الإطار الجغرافي الذي رسماه للمدينة . فمناخ مكة مناخ قاري، شديد الحر نهاراً و البرودة ليلاً.

حقاً إن طقس مكة لاهب محرق، بسبب وقوعها في أحضان جبال قاسية وصعبة،وقد كان لهذا المناخ القاسي انعكاسات تجلت بالخصوص في ظاهرتي الجفاف و القحط. يقول باديا: "تقع مكة في

واد يتجه من الشمال إلى الجنوب تحفه الجبال من جميع الجهات ...... و الجو في مكة جاف ..صافي الأديم في أغلب الأوقات ..مع تقلبات مفاجئة أحياناً في درجات الحرارة

و الرطوبة.....ونتيجة لهذا المناخ فإن الغطاء النباتي بهذه البلدة (مكة المكرمة) ضعيف ونادر، إذ يندر العثور على أية نباتات حول المدينة أو الجبال المحيطة بها، كما أنه لا يمكن العثور في مكة على شيء من الحدائق أو المراعي الخضراء، وإنما الرمل و الأحجار فقط...كما لا يتمكن الأهالي من زرع أية حبوب، نظراً للأرض القاحلة التي لا تستجيب لمتطلبات الفلاحة" (١)

أما أراستارثو، فقد قدم لوحة دقيقة عن الجانب الجغرافي لمكة المكرمة، و قدم أيضاً معلومات في غاية من الأهمية، وعلى الرغم من التعقيد الذي تعرفه جبال الحجاز ونجد، والأهمية الجغرافية والطبيعية لهاتين الجهتين الجغرافيتين، إلا أن أراستارثو لم يشغله منها إلا الطريق الساحلي الموصل إلى مكة . فجبال هذه المنطقة في غاية من العظمة و الجلال، وهي في نفس الوقت مهيبة ورهيبة، يصعب سلوكها، ويشق اجتيازها، لكثرة العوائق و الموانع و القواطع.وللناس في قطعه، أي الطريق، طرق معلومة، ومسالك مرسومة، ومن خالفها منهم توعر وتاه.(٢)

---

(١) رحلة باديا ج ٢ / ٣٧٩، ٣٨٠، ٤٠٩، ٤١٢، وبحث الدكتور عبد الحفيظ حمان ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي الرياض ١٤٢٠، ومجلة التاريخ العربي ع ٢٣ صيف ١٤٢٣ هـ

(٢) رحلة أرستارثو ص : ٢٢، ٤٥ ط مدريد.

ب ـ المجال التاريخي

وحظ الجانب التاريخي في الرحلتين هام ومفيد جداً، سواء تعلق الأمر بالتاريخ المحلي لبعض جهات الحجاز كمكة المكرمة و المدينة المنورة، أو بالتاريخ العام للبلاد .

ولعل مرد اهتمام الرجلين بتقييد المعلومات التاريخية عن الحجاز: مكة والمدينة، وسوق الفوائد، هو رغبة الأوروبيين في الاطلاع على أحوال المسلمين، والتعرف عليهم، وبالخصوص في مكة و المدينة . و فيما يلي رصدٌ لبعض تلك الإشارات التاريخية الهامة، وتصنيفها حسب أغراضها ومضامينها ..

يذكر أريستارثو بالخصوص معلومات تاريخية قيمة بالنسبة للإنسان الأوروبي تتعلق بتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، ويقف عند مكة المكرمة وقفة طويلة، مبرزاً مكانتها عند العرب، ثم ظهور البعثة النبوية والمراحل التي قطعتها..

ومما يدخل في البحث التاريخي المعاصر الحديث عن الحركة الوهابية . فقد أفرد الرحالتان فقرات مسهبة للحديث عن الوهابيين وحركتهم الإصلاحية، والظروف و الملابسات التي واكبت ظهورهم . يقول باديا : "ظهرت حركة محمد ابن عبد الوهاب الإصلاحية في وقت اشتد فيه الفقر و الجهل والخروج عن جادة الدين باتباع أصحاب الأهواء و الملل الضالة والنحل المنحرفة و الممارسات الدينية الباطلة."[(١)]

---

(١) رحلة باديا ٢ /٤٤٤، وانظر عن الوهابيين كتاب "سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب". أحمد =

وعن تاريخ ظهور هذه الحركة يقول أُرِّستارثو : "ظهرت حركة الوهابيين أواسط القرن الثامن عشر، على يد زعيمها محمد ابن عبد الوهاب، المولود بنجد عام ١٦٩٦م [1] ... و ترجع قصة ظهور هذه الحركة إلى ما حكاه أحد رعاة نجد البسطاء و اسمه سليمان، فقد حكى هذا الراعي أنه رأى فيما يراه النائم أنه خرجت من جسمه نار وصارت تدور حوله حيث ما دار . ولم يعرف سليمان لهذه الرؤيا تفسيرا أو تأويلا، فقصد أحد العارفين بتعبير الرؤيا وتفسيرها فقص عليه ما شاهده في المنام، فقال له : "إن مجدد هذا الدين سيكون على يد أحد أبنائك .. لكن الذي حدث، يقول أراستارثو، هو أن الذي قام بتجديد الدين هو أحد أحفاد سليمان وهو محمد ابن عبد الوهاب الذي حقق حلم جده سليمان ."[2]

وعن انتشار حركة الوهابيين وذيوع صيتها في العالمين: الإسلامي و المسيحي يقول باديا : "انتشرت حركة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية انتشاراً منقطع النظير و في وقت وجيز من ظهورها ، وأصبح لها أتباع وأنصار، في جهات متعددة من شبه جزيرة العرب، أما في أوروبا، فقد أحدثت هذه الحركة المباركة رجة عنيفة، وملأت دنياهم وشغلتهم، لما سمعوا عنها من قوة الشكيمة ن وشدة

=

عبد الغفور عطار، ولمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، لمؤلف مجهول . تحقيق أحمد مصطفى.

(١) رحلة أرستارثو . ص ٢٤.ط مدريد ط١٨٧٨

(٢) نفس المصدر ص٢٥ ..

الصرامة ...."[١]

ويسترسل أرستارثو في سرد أخبار حركة الوهابيين، وذكر سلسلة من الانتصارات التي حققتها الحركة، خاصة لما انضمت إليها أسرة آل سعود التي احتضنت دعوتها ، ونافحت عنها، وأبدت بطولات منقطعة النظير، وإلى هذه الأسرة آلت السلطة السياسية والدنيوية فيما بعد، وبقيت السيادة الدينية والروحية في يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب..

بعد هذا الفرش التاريخي الوجيز يشرع باديا وارستارثو في عرض أهم مبادئ الدعوة الوهابية والأسس التي قامت عليها...[٢].

ج- المجال الإداري و السياسي:

تزامن سفر الرحالتين الإسبانيين إلى مكة المكرمة مع ميلاد الدولة السعودية ، وتدهور، الخلافة العثمانية التي بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة ..يقول باديا: "عند وصولي إلى الحجاز كانت السلطة في مكة بيد الشريف الذي يخضع لتبعية السلطان العثماني...وفي أوائل عام ١٨٠٧تم الإعلان عن إبعاد شريف مكة عن الحكم ونزع سلاحه، و القضاء على سلطته وانتقلت السلطة القضائية إلى الوهابيين،ثم أمر بإجلاء جميع اتباعه عن مكة إلى خارج الجزيرة العربية.. وهكذا انتهت هذه الثورة السياسة دون إراقة الدماء ." [٣]

---

(١) رحلة باديا ٢ / ص ٣٢٤، وبحث د. عبد الحفيظ حمان .مجلة التاريخ العربي ع ٢٣ صيف ١٤٢٣هـ .

(٢) رحلة باديا ٢ / ٤٤٠ .

(٣) رحلة باديا ٢ /٤٣٢ وما بعدها .

أما أرستارثو فاكتفى في حديثه عن الوضع السياسي، وعن حاكم مكة يومئذٍ بقوله: "ويرعى شؤون مكة الدينية و الدنيوية أمير يطلق عليه الشريف. ويشترط فيه أن يكون منحدراً من سلالة السيدة فاطمة ابنة الرسول مباشرة... بيده السلطة المطلقة ...ليس عليه لأحد من الحكام بيعة، وحتى سلطان تركيا لا يخضع له إلا نادرا، حينما تتدهور الأمور، وتضطرب الأحوال، ويصبح تدخل سلطان تركيا في شؤون شريف مكة الداخلية أمراً ضرورياً. " (١)

د ـ المجال الحضري

أ ـ المساكن و الدور

استهل أرستارثو حديثه عن بنايات مكة المكرمة ومساكنها بنبذة تاريخية فقال : "كانت الكعبة وحيدة في الوادي، لا بناء حولها ...حيث لم تكن قريش تجرؤ على السكنى حول البيت تعظيماً له، فقال لهم شيخ القبيلة: إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم.. ثم بنى دار الندوة "(٢)

ثم أضاف فقال :" و بنايات مكة اليوم ومساكنها في غاية من الأناقة والضخامة، وخاصة مبني قصر العدالة الملاصق للمسجد الحرام، و المزارات الروحية الفاخرة الشديدة العناية و الصيانة، إذ هي رموز إسلامية، لها في قلوب المسلمين مكانة خاصة" (٣) أما باديا

---

(١) رحلة أرستارثو ص ٢٢،٢٣ ط مدريد.

(٢) رحلة أرستارثوص٢٤، ٢٥.

(٣) نفسه.

فيقول في هذا الصدد : "و دور مكة المكرمة عبارة عن غرف فوق غرف متناسقة و رشيقة ترقب العالم الخارجي بواسطة نوافذ صغيرة الحجم ..، علاوة على هذه النوافذ الصغيرة فإنها تتوفر، أي المنازل، على الشبابيك الكبيرة و الشرف المطلة على الخارج. وأهل مكة كثيرو العناية بمنازلهم ودورهم، شغوفون بإصلاحها وصيانتها في كل حين حتى تبقى محتفظة برونقها وأبهتها التي اكتسبتها عبر السنين والأعوام .. وجمال منازل مكة يشهد على أبهة مكة القديمة و السكان قائمون على صيانتها لحفظ رونقها. "(١)

هذا عن الدور و المنازل الواقعة على الشوارع الأمامية للمدينة، أما الدور و البيوتات الواقعة في الشوارع الخلفية فحالها، كما تصوره عدسة الرحالتين، مزري للغاية، فهي، أي المساكن، لا ترقى إلى مستوى المنازل التي نعتاها بالجلال و العظمة و الأبهة القديمة، ثم إن تلك المنازل التي تقع في الشوارع الخلفية تظل فارغة طوال العام..لذا تجد أغلبها آيلاً للسقوط،أما واجهاتها فتظهر في حالة جيدة، وذلك من أجل جلب الحجاج.." (٢)

ب - المرافق الدينية

بعد الحديث الذي قدمه البحث حول مساكن مكة ودورها، ناسب أن نتعرف على ما قاله الرحالتان بخصوص المرافق الدينية لمكة المكرمة.

---

(١) رحلة باديا، ٢ / ٣٨٤ ٣٩٨).

(٢) المصدر نفسه.

شكلت الأماكن المقدسة في مكة وضواحيها أهم المحطات التي وقف عندها الرحالتان، وأرخيا لقلمهما العنان، فوصفا المدينة و معالمها، وتحدثا عن موقعها، وأجريا الحديث عن إنارة المدينة و المسجد الحرام خاصة،[١] ووصفا المصابيح و القناديل الزيتية [٢] وهلم جرّاً .

أولاً: الكعبة

أ ـ : الجانب الخارجي للكعبة:

١ـ مقاس الكعبة وموقعها:

اهتم الرحالتان بجانبين أساسيين من جوانب الكعبة هما الجانب الخارجي، والجانب الداخلي . فعن الجانب الخارجي يقول باديا:" الكعبة، أو بيت الله، هي عبارة عن صرح رباعي الشكل، غير متساو في أضلاعه وزواياه، بحيث إن تصميمه يعطي شكل مربع منحرف .. إلا أن ارتفاع مبناه و النسيج الأسود الذي يغطيه يخفيان

---

(١) اختلف العلماء في المراد بالمسجد الحرام، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. انظر ما قاله العلماء في هذا الشأن كتاب أحكام المساجد ١ /١١٧ .

(٢) إنارة المسجد الحرام وغيره من المساجد من القربات إلى الله تعالى، إذا خلصت النية فيها لله تعالى... ..وأول من أجرى للمسجد الحرام زيتاً وقناديل معاوية رضي الله عنه وفي سنة ١٣٣٥ هـ أضاء الشريف حسين المسجد الحرام بمصابيح اللوكسات . ومعنى كلمة اللوكسات : أي الفاخرة، وهو اسم لآلة تشغيل الكهرباء من الشركة المنتجة .أما اليوم فقد خصصت المملكة السعودية آلات لإنارة للمسجد من الداخل و الخارج، وخزانات كهربائية احتياطية . ومن النادر انقطاع الإضاءة بالمسجد الحرام . أحكام المساجد، ج ١ ص ١١٧ ..

هذا التفاوت، ويمنحانه هيأة مربع حقيقي "[١] .

ولم يفت باديا الحديث عن مقاس الكعبة و لا عن أضلاعها، وارتفاعها، والمواد المستعملة في بنائها، والصخور المجلوبة من جبال مكة ونواحيها[٢] . أما أرستارثو فتنقل ريشته معلومات قريبة مما ساقه مواطنه باديا، مع اختلاف بعض الشيء فهو يبدأ بالتأريخ لبناء الكعبة، و الأقوال التي قيلت حول هذا الموضوع . وعنده أن الكعبة "بنيت وفق النموذج الذي هبط من السماء، وهو شكل مؤلف من أشعة نورانية، أوجدها الله استجابة منه لطلب سيدنا آدم عليه السلام، قبل هبوطه إلى الأرض بنحو ألفي عام، ثم قامت الملائكة بإعداد نموذج آخر للكعبة، وبعد الطوفان تلقى سيدنا إبراهيم عليه السلام رسالة من ربه يأمره فيها بالذهاب إلى جزيرة العرب، وإقامة الكعبة هناك بمساعدة ابنه سيدنا إسماعيل." [٣]

وعن موقع الكعبة يقول أريستارثو : "تقع الكعبة ، كما تقع

---

(١) رحلة باديا. ٢ /٣٤٥ . وللعلماء في تسمية الكعبة أقوال وآراء . قال مجاهد وعكرمة سميت بالكعبة لتربعها، ، وسميت به لنتوئها وبروزها . وأشار الأزرقي إلى أنها سميت به لأنها مكعبة على خلقة الكعب، وأن بيوت الناس كانت مدورة، ولم يكونوا يبنونها مربعة تعظيما منهم للكعبة ..أخبار مكة ١/ ٢٧٩ .

(٢) رحلة باديا ٢ / ٣٤٥.

(٣) رحلة أرستارثو ص ٤٧، ٤٨ .و ذكر العلماء أن الكعبة بنيت خمس مرات، بنتها الملائكة قبل آدم وحجها آدم، و الثانية بناها آدم، و الثالثة بناها إبراهيم وإسماعيل علهما السلام . و الرابعة بنتها قريش في الجاهلية، و الخامسة بناها ابن الزبير، والسادسة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي. ينظر في هذا الموضوع شفاء الغرام للتقي الفاسي ١/ ٩١ .

باقي الأضرحة، ودور العبادة التي شاهدتها بشمال إفريقيا، فوق مرتفع صغير، سقفها مسطح، متساوي الأضلاع، وليس للكعبة إلا باب واحد، مصفح بصفائح من الذهب و الفضة، عرضه ثمانية أمتار وارتفاعه أحد عشر مترا ." (١)

٢ ـ كساء الكعبة: (٢)

الكعبة المشرفة، هي قبلة المسلمين في أرجاء المعمورة، ولهذا لقيت من العناية ما جعلها تُكسى بثياب الحرير، وتزين وتطيب. وبيت الله . يقول باديا : "مغطى بنسيج أسود يسمى ثوب الكعبة، معلق في السطح، ومثبت في الأسفل، بواسطة حبال مربوطة في خواتم نحاسية موضوعة حول القاعدة... وهذا الثوب يجدد كل سنة، يؤتى به من القاهرة. وعند ثلثي ارتفاع ثوب الكعبة نجد رباطا يدعى الحزام، وهو مطرز بالذهب وعليه كتابات تتكرر في الجوانب الأربعة. ويتم تغيير الثوب الجديد في كل سنة في احتفال ديني مهيب" .(٣)

ويزيد أرستارثو فيقول : " والكعبة مغطاة كلها بكساء من الحرير الأسود وهو يجدد عند كل موسم الحج، وبالكساء تزاويق

---

(١) رحلة أراستارثو ص: ٤٨، ٤٧ .

(٢) و كساء الكعبة تقليد قديم، فقد ذكر باسلامة أن أول من كسا الكعبة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم كساها بعده عدنان، وقال الأزرقي : إن أول من كساها أسعد الحميري وهو من تبع ، ثم كستها قريش ثم كساها النبي ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان (ض). تاريخ الكعبة المعظمة ص: ٢٤٥.

(٣) رحلة باديا .٢ / ٣٥٢.

وخطوط مرقمة ومطرزة بالذهب، وعليها عبارة التشهد عند المسلمين: لا إله إلا الله محمد رسول الله . يصنع الكساء على نفقة سلطان الترك. وله فيه، أي الكساء، النصف عند تبديله بكساء جديد، أما النصف الثاني فهو من نصيب شريف مكة، يبيعه للحجاج، على شكل خرق صغيرة يحملونها إلى بلدانهم قصد التبرك بها، و الجمال التي تحمل محمل كسوة بيت الله الحرام كثيرة التعظيم و التقديس، لا تستغل في حمل الأثقال، ولا تستخدم مطلقا في أي شكل من أشكال الخدمة"[1]

٣ - غسل الكعبة

ولم يغب عن رحالتنا باديا حديثه عن تطهير الكعبة وغسلها، فكيف يغيب عنه هذا وهو أحد الداخلين إلى جوف الكعبة، المساهمين في تطهيرها وغسلها، المشمرين عن سواعدهم، القائمين على أعمال الكنس و التنظيف،[2] يقول باديا : "في يوم الاثنين ٢٩ يناير ١٨٠٧م / ٢٠ من شهر ذي القعدة ١٢٢١هـ، تم غسل الكعبة حسب المراسيم التالية. بعد ساعتين من شروق الشمس، وصل الشريف [3] إلى الكعبة مصحوباً بثلاثين شخصيةً واثني عشر من

(١) رحلة أرسثارثو ص ٤٠ .٤١ . ٤٢ وما بعدها. و يختص اليومَ بتهيئة كسوة الكعبة مصنع خاص أنشئ على عهد الإمام عبد العزيز آل سعود رحمه الله سنة ١٣٤٦ هـ).

(٢) رحلة باديا ص ٢ /٣٦٠ ، و روي أن عائشة رضي الله عنها قالت لحاجب الكعبة لما سألها عن كسوة الكعبة المتكومة لديه : بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى و المساكين وابن السبيل. أخبار مكة للأزرقي ٢٣٦/١.

(٣) لعل " الشريف غالب" هو المقصود به في هذه الرحلة، قال عنه باديا "هو رجل نبيه وذكي وسياسي =

الحراس : بهم قسم من الزنوج وقسم من العرب. وكان باب الكعبة قد فتح من قبلُ، و أحاط به حشد كبير من الناس، إلا أن السلالم لم يكن قد تم وضعها بعد. "

"وبعد أن تسلق الشريف أكتاف البعض، ورؤوس الآخرين، ولج إلى داخل الكعبة مع رؤساء القبائل الرئيسيين، و أراد الآخرون القيام بالشيء نفسه، إلا أن الحراس الزنوج منعوهم من الدخول، بضربهم بالعصي و القصب. أما أنا، يقول باديا : فقد مكثت بعيداً عن الباب، تجنباً لهذا الحشد الهائل . غير أن رئيس الزمازمة، بعدما تلقى أوامر الشريف، أشار إلي كي أتقدم، ولكن كيف أستطيع اختراق آلاف الأشخاص الموجودين أمامي؟ ...كل الزمازمة في مكة تقدموا بِقِرَبهم المملوءة، واخذوا يمررونها من يد إلى أخرى حتى تصل باب الكعبة ..كما فعلوا الشيء نفسه بعدد من المكانس الصغيرة المكونة من أوراق النخيل،واستمر الزنوج يلقون الماء على أرض الحجرة المبلطة بالرخام وكذلك ماء الورد، فيسيل هذا الماء من ثقب في عتبة الباب، فيجمعه المؤمنون بكل لهفة، ونظراً لعدم كفاية الماء أمام هذه اللهفة الكبيرة،فقد أخذ الحراس الزنوج يلقون الماء بوفرة على هذه الجموع إما بواسطة الأقدام أو بأيديهم، وأوصلوا إلي جرة صغيرة وقدحا، فشربت ما استطعت، و أفرغت الباقي على بدني،

=

وشجاع، عيناه واسعتان، ذو لحية عادية، لباسه يتكون من قفطان خارجي، وآخر داخلي، وشال يتخذه عمامة.." رحلة باديا ٢ /٣١٤، ٣١٥ . وبحث الدكتور عبد الحفيظ حمان مجلة التاريخ العربي ع ٢٣ صيف ١٤٢٣.

بالرغم من أنه وسخ جداً ، فإن فيه نعمة ربانية ، بالإضافة إلا انه معطر بماء الورد ، وولجت البيت في النهاية بواسطة الزنوج الذين حملوني على رؤوسهم ."

" وفي الداخل وجدت الشريف يكنس بنفسه الحجرة ، وفور دخولي خلع لي الحراس عباءتي وقدموا لي رزمة من المكانس الصغيرة ، وبدأت أكنس الأرض و أثناء هذه العملية كان الشريف يؤدي الصلاة .[1] بعدها ناداني الشريف يا خادم بيت الله الحرام .. وتلقيت التهاني من الحاضرين."[2]

٤ ـ الحجر الأسود :

لما كان الحجر الأسود و المقام من أجزاء الكعبة التي لم تذكر إلا في بناء إبراهيم، كان إيراد ما ذكره الرحالتان عن الحجر الأسود مناسبا. يقول أرِّستارثو : "وعلى يسار الداخل إلى الكعبة ، وقريباً من بابها ، وعلى ارتفاع متر ، يوجد الحجر الأسود ، وهو بيضي الشكل ، قطره ٢٠ سنتمتر ... ويزعم بعضهم أن هذا الحجر نزل من الجنة عندما طرد آدم من السماء إلى الأرض ، ويرى آخرون ، أن الحجر كان في أصله أبيض اللون ، وأن آثام الناس maldades سودت جلدته ، ....ثم إن هذا الحجر سيبعث يوم الحساب ، ويمثُل أمام

(١) اختلف العلماء في الصلاة في جوف الكعبة ، وتعددت الآراء من مجيز ومن مانع ، ومنهم من وقف وسطاً . انظر آراء العلماء في الموضوع كتاب المحلى لابن حزم ٤ / ٨ وأحكام المساجد ١ / ٦١ .

(٢) رحلة باديا ٢ / ٣١٤.

العرش، ليبث شكواه ممن كانوا يقبلونهم بالشفاه الوسخة "paracausar a los que habian besado con labios impuros "[(١)]

ولا حاجة بنا إلى مناقشة هذه الآراء و الرد عليها ، يقول أرستارثو: "وحسبنا أن نقول إنها حقائق، يؤمن بها المسلمون إيمانا شديدا ، وليست هناك قوة تستطيع ردهم أو دفعهم عنها".[(٢)]

ب ـ الجانب الداخلي للكعبة

١ـ وصف داخل للكعبة :

لباديا قصب السبق في وصفه للمظهر الداخلي للكعبة ، إذ أتيحت له من الفرص ما لم يتح لزميله أرستارثو، ذلك أنه تمكن من الدخول إلى جوف الكعبة ، حينما سمحت له الأوساط الحاكمة بالحضور في مراسيم تطهير الكعبة وغسلها ، وهو الأمر الذي لم يتيسر لأرستارثو، الذي قدم لنا وصفا محتشما عن المظهر الداخلي للكعبة. ومما قال باديا بخصوص هذا الجانب : " في الجزء الداخلي للكعبة ، نجد قاعة واحدة ، في وسطها عمودان، قطر كل منهما

(١) رحلة أرستارثو ص ، ١٩ . ورد في الحجر الأسود أحاديث وآثار أهمها: عن ابن عباس (ض) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل الحجر الأسود من الجنة رواه النسائي ٥ / ٢٢٦) و عن ابن عباس (ض)قال : قال رسول الله ص في الحجر : والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق"..سنن الترمذي المطبوع مع تحفة الأحوذي ٦١٨/٤ ومورد الظمآن ٢٨٤ وقال الترمذي : الحجر الأسود أشد بياضا من اللبن، وإنما سودته خطايا بني آدم، جامع الأصول ٩ / ٢٧٦

(٢) رحلة أُرِّستارثو ص ١٨، ١٩ .

قدمان، يحملان السقف الذي لم استطع معاينة شكله، لأنه مغطى بنسيج رفيع يغطي الجدران و الأعمدة من فوقها إلى علو خمسة أقدام من الأرض ونسيج جدرانه من الحرير الوردي، مرصع بورود منسوجة من الفضة، ومبطن بنسيج آخر " [١]

٢- فتح باب الكعبة:

لم يتطرق باديا لموضوع فتح باب الكعبة وولوجها، [٢] لكنه فسح المجال لزميله أرستارثو ليحدثنا عنه فقال: " تفتح باب الكعبة ثلاث مرات في العام، مرة تفتح للرجال، ومرة للنساء، ومرة ثالثة تفتح لتطهيرها وغسلها " [٣]

***

(١) رحلة باديا، ٢ / ٣٤٩ . وعبد الحفيظ حمان مجلة التاريخ العربي. العدد ٢٣ . صيف ١٤٢٣ هـ .

(٢) دخول الكعبة ليس من مناسك الحج والعمرة، وليس بواجب ولا فرض كفاية، وليس من مستحبات الحج ولا من سننه، وكان دخوله صلى الله عليه وسلم عام الفتح. ولم يدخلها في حجة ولا في عمرة. أحكام المساجد ج ١ / ٤٩،٦٠.

(٣) رحلة أرستارثو ص ٤٧، ٤٨

ثانياً : مقام إبراهيم:

لا يفوت باديا و أرستارثو الحديث عن مقام سيدنا إبراهيم [(١)]

و وصفه وتحديد موقعه ومكانه وبعده عن الكعبة، .يقول باديا : "ومقام إبر أهيم هو على شكل مهد، يبعد عن الكعبة بنحو أحد عشر مترا، . طوله ا نحو أربعة أمتار، وعرضه متران "[(٢)]

وعن مقام إبراهيم يضيف أرستارثو معلومات استقاها مما قرأه في بعض الكتب الدينية: "وفي الجهة المقابلة للحجر الأسود، نشاهد حجراً آخر أكبر بعض الشيء من الحجر الأسود، وهو أبيض اللون، وتذهب بعض الروايات أنه الحجر الذي وضعه سيدنا إبراهيم عند تشييده للكعبة "(٥٢)[(٣)] . وقريبا من باب الكعبة يوجد تجويف عليه لوحة من المرمر، يعتقد أنه التجويف الذي وضع عليه إبراهيم وابنه إسماعيل الملاط.، وبوسط الأرضية لوحتان يعتقد أن تحتهما ترقد رفات سيدتنا هاجر وابنها إسماعيل ."[(٤)]

---

(١) مقام إبراهيم والحجر الأسود ياقوتتان من الجنة، صعد عليه إبراهيم عليه السلام فارتفع به فأذن في الناس بالحج. ومقام إبراهيم هو المقام المنصوب عليه زجاج وشبك مذهب تجاه الكعبة من جهة الشرق عن يمين باب الكعبة في زمننا هذا. أخبار مكة ٢/٣٦، ٣٣، وأحكام المساجد ١/ ٦٠

(٢) رحلة باديا ٢ / ٣٥٥.

(٣) رحلة أرستارثو ص٤٩ وما بعدها .

(٤) نفسه.

ثالثاً : ماء بئر زمزم :

حدد باديا موقع بئر زمزم وبعده عن الكعبة من الجهة الشمالية، وتحدث عن اسمه وطريقة جلب الماء منه و الطقوس المتبعة في ذلك[(١)].

أ ما أراستارثو فقد اكتفى بالحديث عن قصة بئر زمزم ومعجزة نبع مائه، والأخبار الواردة في هذا الشأن .يقول أرستارثو "بينما هاجر تهرول في سعيها بين الصفا و المروة، تعللا ليموت ابنها ولا تراه، إذ بملك ينزل من السماء، فيفجر في موضع زمزم ماء، فجرى، فاستقت أم إسماعيل وشربت، ودرَّت على ابنها حتى ارتويا". [(٢)] وفي وصفه لماء زمزم يقول:" وماء زمزم ماء عكر، به ملوحة خفيفة، لا هو بالعذب الفرات ولا بالمالح الأجاج، لكن الحجاج يشربون منه التماسا للبركة و المثوبة، و مغفرة الذنوب والخطايا " [(٣)]

---

(١) رحلة باديا ٢/ ٣٥ . وتسمى زمزم بأسماء مختلفة، كل اسم له معنى ودلالة. انظر في هذا: شفاء الغرام ٢٤٧/١.

(٢) رحلة أرستارثو ص ١٩.

(٣) رحلة أرستارثو، ص١٩ . الخبر الذي ساقه أرستارثو في شأن أم إسماعيل خبر قريب مما ترويه كتب السيرة وكتب تاريخ الإسلام .قال الأزرقي: مشت أم إسماعيل بين الصف و المروة سبع مرات. وفي المرة السابعة رجعت إلى ابنها فوجدته كما تركته يموت عطشاً، فسمعت صوتاً فقالت: قد أسمع صوتك فأغثني إن كان عندك خير، فخرج لها جبريل عليه السلام فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر، فظهر ماء فوق الأرض، فحاصرته ام إسماعيل بتراب ترده خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بقربتها . أخبار مكة للأزرقي ٣٩/٢، ٥٠ وشفاء الغرام للتقي الفاسي ٢٤٨/١ ، وماء زمزم اليوم بارد لذيذ، وزعت صنابير للمياه من البئر الرئيسة إلى أنحاء المسجد الحرام ليشرب الناس منه . وله خاصية طبية، وهو نافع للمعدة و الكلى و الأمعاء و الكبد .. وفيه ملوحة تطرد ضعيف الإيمان أن =

رابعاً : الصفا و المروة :

ركز باديا في فقرة الحديث عن الصفا و المروة على تحديد موقعهما، والشكل الذي كانتا عليه في القرن التاسع عشر، فعن الصفا يقول: " تقع الصفا في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد الحرام، أمام الباب الذي يحمل الاسم نفسه، وفي قدم الجبل الذي يسمى ابوقبيس، وعند نهاية الطريق، الموصل إلى تل الصفا، يوجد رواق مكون من ثلاث أقواس، مدعم بثلاثة أعمدة ضخمة، نصعد إليه عبر أربع دحرجات، وهو الموضع الذي يرتل فيه الحاج الدعوات الخاصة بالصفا"[١] أما المروة فتبعد قليلا عن المسجد الحرام من الجهة الشمالية، تنتهي بفضاء به يرتل الحاج دعوات المروة. "[٢]

هـ ـ المجال الديني:

وهذا ميدان خصب وثر عند باديا، أطلق فيه لقلمه العنان، فصال وجال، وأتى على كل صغيرة وكبير، بادئا كلامه بالحديث عن مناسك الحج في مكة المكرمة، انطلاقاً من الطواف حول الكعبة، و السعي بين الصفا و المروة، ومروراً بوصف الطريق المؤدية إلى منى فالمزدلفة، ثم مناسك الحج في عرفة ، ورجم الشيطان..

ولا بأس أن نقف مع باديا، وهو يقربنا من مشهد وقفة عرفة،

=

يتضلع منه، وهو أفضل مياه الأرض شرعاً وطبا. أحكام المساجد١ / ١٤١.

(١) رحلة باديا ٢ / ٣٥٥(وبحث د .عبد الحفيظ حمان مجلة التاريخ العربي ع٢٣ صيف.

(٢) نفس المصدر ٢ / ٣٠٣

فقد أحسن وصفه وأجاد رسمه . والمتأمل في وصفه لوقفة عرفة يحس إحساسا صادقاً انه يقرأ لكاتب مسلم، عابد متبتل، و أنه ليس أمام لوحة من صنع نصراني من نصارى إسبانيا بشبه الجزيرة الإيبيرية، ذلك انه استعمل الحس الروحي والديني الذي قد لا نجده عند بعض الحجاج لدى أدائهم لمناسك الحج. يقول باديا : " لا يمكن أن يتصور الواقف في عرفات المشهد العظيم الذي يقدمه الحج للمسلمين إلا على جبل عرفات : جماهير غفيرة من كل الشعوب والأمم و الألوان، جاءوا من أقصى أنحاء العالم متجاوزين آلاف المخاطر، .. لكي يعبدوا الله الواحد جميعا، سكان القوقاز يمدون يد الصداقة إلى أهل الحبشة، أو الزنجي من غينيا و الهندي و الفارسي من آسيا يتآخون مع البربري و المغربي و العجمي، يتلاقون جميعا كأنهم أخوة أو أفراد من العائلة نفسها توحد بينهم رابطة الدين ... ليست هناك عادة مثل الجج تقدم للحواس مشهدا اكثر روعة وإثارة للمشاعر..." [(١)]. "وفي عرفة لاتوجد طبقة وسطية بين العبد وخالقه، ولا طبقة متميزة عن الأخرى، الناس جميعاً سواسية أمام الله كأسنان المشط، والكل يدرك أن عمله هو الذي يقربه إلى الخالق أو يبعده عنه، ولن تستطيع أي قوة مهما كانت، أن تغير هذه السنة الإلهية" [(٢)]

أما أراستارثو فقد ندهش له أكثر عندما نقرأ وصفه لحجاج بيت الله الحرام ، وسعيهم في أداء مناسكهم، و وقفته البانورامية

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

لمشاهد ركاب الحج الوافدة على مكة من جميع أرجاء المعمور، كركب سوريا ومصر و المغرب والسودان، وركب آسيا الصغرى وتركيا [١] ثم تطرق لذكر أركان الحج، بادئا بالإحرام وهو نية الدخول في أداء فريضة الحج، ثم الطواف وهو الدوران حول الكعبة المشرفة سبعة أشواط، كل شوط يبدأ بالحجر الأسود، وينتهي إليه. والسعي بين الصفا و المروة ذهاباً وإياباً سبع مرات، ثم الذهاب من الصفا إلى المروة شوط أول، والعودة من المروة على الصفا شوط ثان. بحيث يتمكن الحاج من الوقوف على الصفا أربع مرات، وكذا على المروة أربع مرات.وأخيرا الوقوف بعرفة، وهو آخر ركن من أركان الحج ويكون في اليوم التاسع من ذي الحجة، ولا يتأتى هذا الركن إلا مرة واحدة في السنة كلها،ثم يشرع في الطواف حول مكة سبعة مرات يسرع في الأشواط الثلاثة الأولى [٢]

ثم تتغير وتيرة الطواف في الأشواط الباقية،، وعلى كل مسلم تقبيل الحجر الأسود، أو لمسه عند الازدحام مع الإكثار من الدعاء [٣]

و ـ المجال الاجتماعي :

في الرحلة حديث مسهب عن جوانب من المجتمع المكي أوائل

---

(١) رحلة أرستارثو ص ٩١ وما بعدها .

(٢) نفسه ص ٩١.

(٣) نفسه ٩٢.

القرن التاسع عشر، وعن عدد السكان الذي يبلغ حسب تقديرات باديا بما يناهز ستة عشر إلى سبعة عشر ألف نسمة، و أهم عنصر بشري وقف عنده الرحالتان هو عنصر المرأة بنوعيه البدوي والحضري، حيث قدما لنا وصفا حيا للمرأة المكية أتى على وصف شكلها ولباسها، وطريقة عيشها ونشاطها داخل منظومة ساكنة مكة. وركزا على الأجسام والقوام، فالمرأة المكية و معها أخوها الرجل، يتمتعان بأجسام ضعيفة ونحيلة، لو هبت عليها الريح طاحت، أما عن لباسها فهو عبارة عن ملاءة و حجاب عليه خطوط زرقاء وبيضاء طولا وعرضا .

وعلى العموم فصورة المرأة والرجل في تقارير الرجل هي عبارة عن أشباح وأرواح تتحرك في فضاء لاهب محرق، في صورة تبعث على الرحمة والشفقة [(١)]

والمرأة البدوية أسوأ حالا من أختها الحضرية في عيون باديا، لنستمع إليه يقول : "النساء البدويات وحتى اللائي يعتبرن من الفئة الغنية، ليس لهن من اللباس إلا قميص من ثوب أزرق، و حجاب عليه خطوط زرقاء وبيضاء طولا وعرضاً ، وقد يضعن ستاراً على وجوههن أو حجاباً كبيراً أسود من الصوف، وخواتم وأساور وبعض الحلي.[(٢)]

---

(١) باديا ٢ / ٤٠٤

(٢) نفسه ٢ / ٤٠٣

" وعلى العموم فسكان مكة تقريبا لا يتوفرون على لباس جيد، يعيشون في خيام أو أكواخ بلا أثاث، سوى قصعة من الخشب، وفي بعض الأحيان، قدر من المعدن، وجرة وأوعية موضوعة على الأرض، وحصيرة يتخذونه فراشاً، ورحى لطحن الحبوب، وقربة لتخزين الماء" [١]

ويستثني باديا من بين الفئات الاجتماعية المزرية فئة محظوظة غارقة في بحر النعيم ومع ذلك نجد بين الفئات المزرية المسحوقة شخصيات غنية في ملبسها الذي يتكون من أثواب الهند والسند والخُمر الكشميرية أو الإيرانية "[٢]

و عن حرية المرأة في مكة المكرمة فالأمر بالنسبة إليها يختلف عن باقي الحواضر الإسلامية، فهي في مكة تنعم بالحرية المطلقة، لا سلطة للرجل عليها، والعلة في ذلك كما يقول باديا: " انتشار ظاهرة البؤس و الفقر التي تجعل الرجال لا يولون الاهتمام إلى المرأة " وهذا حكم فيه نظر، لأنه لا يستند إلى قاعدة متينة ..

وفيما يتعلق بوضعية المرأة في الشريعة الإسلامية فخير من عالج هذا الموضوع أرستارثو. فقد وقف الرجل عند المرأة المكية ، وبين حظها من الحياة و المجتمع، و المكانة التي بوأها الإسلام، بادئا حديثه عن وضعية المرأة في المجتمعات القديمة التي كانت المرأة فيها تعد من سقط المتاع ، تورث ضمن التركة التي يتركها الهالك

(١) نفسه ٢ / ٤٠٣

(٢) نفسه ٢ /٤٠٥

.فـالابن البكـر يـرث أمـه مـن أبيـه، وكـذلك الجـدة ومـا ملكـت أيمانه [(١)]

والمـرأة العربيـة المـسلمة معـززة مكرمـة لهـا حقـوق وعليهـا واجبـات مثلـها في ذلـك مثـل الرجـل. ولتعزيـز رأيـه يلتجـئ أريـستارثو إلى جلـب الآيات القرآنية والاستشهاد ببغض الأحاديث النبوية[(٢)].

وعـن عـادات النـاس وأعـرافهم، في الأفـراح و المـسرات، كـالزواج والمـيلاد والمـآتم ومراسـيم الجنـائز ومواكبهـا ودفـن الأمـوات ، فالغالـب علـى الظـن أن الرحـالتين لم تـسمح لهمـا الظـروف بمـشاهدة معظمهـا، إذ نجـدهما يكتفيـان بتقييـد المعلومـات الـتي تتعلـق بـالزواج وأعيـاد المـيلاد مـن شـفاه بعـض الأشـخاص .، أمـا مراسـيم الجنـائز ودفـن المـوتى، فيـذكر باديـا و أرسـتارثو أنهمـا شـاهدا بعـضها، إذ يُـصلى عليهـا في الكعبة، وتدفن خارج المدينة دون إقامة أية مراسيم.

ومـن العـادات الـتي اسـترعت انتبـاه أرسـتارثو، وهـو يتجـول في المدينـة، إقبـال النـاس علـى شـرب القهـوة، فالنـاس هنـاك مولعـون بـشربها لدرجـة الإدمـان، رغـم مـا يبذلـه حـاكم المدينـة مـن جهـود في سـبيل القـضاء عليهـا، ومطـاردة مروجيهـا في الأسـواق و الأمـاكن العموميـة، لكـن النـاس، يقـول أرسـتارثو، لا يزيـدهم زجـر الـشريف إلا حبـاً لهـذه

---

(١) رحلة أرستارثو ٩٧

(٢) رحلة أرستارثو ص ٩٤

النبتة، وإقبالاً عليها."[١]

ز ـ المجال الاقتصادي و التجاري:

في الرحلتين إشارات عديدة، وفوائد هامة عن حياة المكيين الاقتصادية والتجارية وما يتصل بهما من العمليات المصرفية، وطرق البيع و الشراء في الأسواق، وأنواع السلع والبضائع المعروضة في الأسواق و المتاجر، بالإضافة إلى ذكر الكثير من المنتوجات الفلاحية والصناعية، وغير ذلك مما يتعلق بنشاط الناس وحياة السوق، ولم تخل الرحلتان أيضا من ذكر أنواع السلع التي كان يحملها الحجاج معهم لعرضها في أسواق مكة .

وأسواق مكة في حركة اقتصادية دائبة على مدار العام، إذ قلما تخلو من مرور ركب من الأركاب، فتكون للنازلين بمكة فرصة سانحة لإقامة الأسواق التجارية ومحلات البيع والشراء وتبادل البضائع و السلع، فيكثر الناس من شراء الدقيق و الأدم و الزيوت والسمن واللحم المقدد و الملح وغيرها من المواد الاستهلاكية.ولعل من النقاط التي ركز عليها الرحالتان في هذا المجال:

أ ـ الفلاحة :

أبدى الرحالتان إعجابهما الكبير بالمنتوح الفلاحي و الزراعي الذي توفره منطقة الطائف لأسواق مكة، وهذا واضح من حديثهما عن الغلال التي كانت تعرض في أسواق مكة المكرمة، مستثنيين

(١) نفسه.

من ذلك القمح الذي كان يستورد من الخارج كمصر و الرز من الهند، أما الخضر، فكانت تأتي من الطائف ..فتشمل البصل و اللفت و الخيار و البقول وأنواعاً من الخضروات(١)

وعن الماشية وقطعانها التي شاهدها الرحالتان في مكة فتتمثل في الخيول و الحمير والجمال، وخيول مكة على أصناف ثلاثة: الخيول العربية الجيدة الأصيلة، وهذا الصنف لا يوجد إلا في حوزة شريف مكة وبعض الخواص، وهي خيول سريعة وقوية وفائقة الجمال، وما عدا هذا الضرب من الخيول فهو عظيم الجرم، كبير الجسم ...حمير مكة من النوع الجيد لكنه قليل ونادر لصعوبة الطقس وقساوة المناخ .

وكما أن مصر هدية النيل كما يقول هيرودوت ،كذلك جمال مكة، فهي هدية إلهية للسكان وللذين يسافرون في هذه المناطق الملتهبة. وأية قوة تستطيع تحمل العدد الهائل من الحجاج عند ذهابهم لجبل عرفة لولا المساعدة التي تقدمها الجمال الغالية .

و مما يدخل في الثروة الحيوانية لاحظ باديا وجود أبقار لا يوجد في رأسها قرون، وهي تصلح للركوب وحمل الأثقال، وتستطيع السفر بسرعة وخفة، كما أنها تدر لبناً وافراً. والى جانب هذا الصنف من الأبقار هناك أبقار وعجول صغيرة شبيهة

(١) رحلة باديا ص ٢ /٣٠٤ ٣٠٥ وما بعدهما

بعجول المغرب.(١)

ب ـ التجارة:

و أسواق مكة مفتوحة لجميع سلع الدنيا، فقربها من ميناء جدة جعلها مستودعاً ضخماً للسلع و البضائع الأوروبية و الآسيوية والإفريقية، هذا بالإضافة إلى السلع التي تصلها بواسطة القوافل التي تأتي أيام الحج من دمشق و ومصر و اليمن (٢). ومن هذه السلع الأخفاف التي يؤتى بها من القسطنطينية و من بلاد مصر، لأن أهل مكة لا يجيدون إلا صنع النعال من الخشب أو الجلد غير المدبوغ.

والى جانب الرواج التجاري الذي تعرفه مكة خلال موسم الحج، هناك أنشطة أخرى على مدار العام، كالذي يحدث على طول الشارع الرئيسي وسط المدينة وهي سوق دائمة تمتد من طرف المدينة إلى الآخر ففيها تجد الباعة يقفون على أبواب أكواخهم الصغيرة المصنوعة من العصي و الحصير المنسوج من القصب، و تجد باعةً آخرين يقفون تحت نوع من المظلات الكبيرة(٣)

وتظل هذه الأسواق مكتظة بالجماهير في كل أوقات النهار، كما ينتشر على الشارع الرئيسي حوانيت القصدارين (صناع الصفيح) الذين يصنعون أنواعاً من الأوعية التي يستعملها الحجاج

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

لحمل ماء زمزم، و النحاسين والإسكافيين و أصحاب الحلويات التركية والمصرية، وأرباب المطاعم، وسائر الحرفيين والصناع وهلم جرا[١]

وعن أثمان السلع، و المقاييس و المكاييل و النقود المتداولة يومئذ في أسواق مكة، فقد لاحظ باديا أن المقاييس و العملة المستعملة هي المقاييس والعملة المصرية، مضافا إليها بعض العملات الأجنبية، بما في ذلك العملة الإسبانية وقيمتها في العمليات المصرفية الرسمية خمسة قروش تركية، أما عند الصرافين الجالسين في سماطهم بأزقة مكة فتنقص قيمة العملة الإسبانية بعض الشيء. [٢]

وعن العمليات المصرفية وطرق إجرائها، والكيفية التي تتم بها عملية الصرف، فأحسن من يقربنا من مشهدها دومنجو باديا حيث يقول:" وفي أسواق مكة تجد نقود كل البلدان والصرافون الجالسون في الأسواق العمومية أمام مكاتبهم وبجانبيهم موازين صغيرة، يشتغلون طول النهار في صرف النقود وتبديلها" [٣]

ح - في المجال العلمي و الروحي:

ومما لا شك فيه أن للرحلتين قيمة شاهدية في غاية من الأهمية خاصة بالنسبة للقارئ الأوروبي الذي يجهل كل شيء عن بلاد الإسلام

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

والمسلمين فبواسطة ما يقدمه الرحالتان من معلومات يمكن التعرف على العديد من المجالات، وخاصة المجال العلمي و الروحي، ففي الرحلتين استكشاف جوانب من حياة المكيين الدينية و الروحية . وقد ربط باديا الصلة مع العديد من علماء مكة وشيوخها المبرزين، وحتى الزعيم الروحي لحركة الوهابيين، محمد بن عبد الوهاب، كان له معه لقاء ..خلافاً لبلديه أرستارثو، الذي كان في الغالب يقف في الظل، بعيداً عن الأضواء .

وحظ الثقافة والتعليم من تقرير باديا ضعيف وشاحب، فأهل مكة قليلو المعرفة، ثقافتهم محصورة في حفظ القرآن وكتابته، ومعرفة سطحية لمبادئ الصلاة وكيفية أداء مناسك الحج، مع بعض التراتيل و الأدعية التي يكتسبونها بالدربة والممارسة .كل ذلك من أجل أن يصبح المحظوظ منهم مرشداً للحجاج، ومطوفاً لضيوف الرحمان [1]

وان وجدت هناك مدارس فهي غير منظمة، تحتاج إلى مؤطرين وتربويين وموجهين . وبالمقابل سجل باديا ظاهرة جلوس بعض الفقهاء المجاورين للبيت العتيق تحت أبواب الحرم يقرؤون القرآن، فإذا ا تحلق حولهم الناس شرعوا في شرح بعض الآيات القرآنية، طمعاً في مكافأة .

(١) نفسه.

هذه هي أنواع وسائل تلقي المعلومات و القراءة في مكة زمان باديا . والنتيجة التي يريد باديا الوصول إليها ، وإن لم يصرح بها ، هو أن سكان مكة المكرمة يعيشون في جهالة جهلاء وضلالة عمياء .

أما أرستارثو فأهم ما أبرزه تقريره حول موضوع الثقافة والعلم بمكة المكرمة ، هو حديثه عن مكانة العرب الثقافية و العلمية في الجاهلية والإسلام، خاصة في الحقل الأدبي، شعره ونثره، فللعرب في هذا الميدان ، يقول أريستارثو ، الباع الطويل، وناهيك عن الأسواق الأدبية التي اشتهر بها العرب كسوق عكاظ والمربد ، والقصائد السبع المشهورة عند العرب، و عادة تعليق الجيد منها بأستار الكعبة بعد أن تكتب بماء الفضة و الذهب فتسمى بالمذهبات أو المعلقات Este es el origin de los tan celebres siete poemas que existen en templo de la Meca a la aparecion de Mahoma y que se llaman Moallakat sujendido o colgados y mudahabat doradas porque estaban escritas en letras de oro" [(١)]

وعلى كل حال فمكة المكرمة ، وخاصة في موسم الحج، تصبح أعظم ملتقى فكري عالمي عرفته البشرية قديما وحديثا ، فهي تتحول أثناء موسم الحج إلى عرس ثقافي وروحي يجتمع فيه المسلمون وعلماؤهم ومشايخهم وأهل الصلاح والفضل، فيحصل بهذا اللقاء من

(١) رحلة أرستارثو ص ٥٨ وما بعدها.

التقارب و التفاهم، و الاستزادة من العلم، و الامتداد لروافد الثقافة، وانتشار الأفكار والآراء بين مختلف الأقطار الإسلامية، مما لا يحصل مثله في أي ملتقى من الملتقيات العالمية في وقتنا الحاضر [(١)]



(١) نفسه.

خاتمـــة:

و بالجملـة، فقـد حظيـت مكـة المكرمـة بنـصيب أوفـر مـن كتابـات باديـا وأرسـتارثو، وهـذا يرجـع إلى المكانـة الدينيـة الـتي تحظـى بهـا مكـة المكرمـة، وإلى مـا كانـت تبثـه هـذه المدينـة في نفـوس الأوروبـيين، وخاصـة في القـرن التاسـع عـشر، مـن فـضول ـ تجعلـهم يتوقـون لزيارتهـا، ويجتهـدون في اللحـاق بهـا، إذ كانـت هـي المـستهدفة مـن طرف اكثر الرحالة الغربيين.

إذا رجعنـا إلى مـتن الـرحلتين وجـدنا أن الرحـالتين قـد اختلفـت مـصادر معلوماتهمـا عـن مكـة المكرمـة، فبينمـا اكتفـى باديـا بالملاحظـة و الروايـة الـشفوية، وهـذا مـنهج معظـم الرحـالين إلى الـبلاد الإسـلامية، نجـد أرسـتارثو يـنهج نهجـا مخالفـاً بعـض الـشيء عـن بلديـه باديـا، فقـد اعتمـد في إيـراد بعـض المعلومـات، وخاصـة تلـك الـتي تتعلـق بالمجـال الـديني كـالحج ومناسـكه والمواقـع الدينيـة وأماكنهـا، علـى الكتـب الدينيـة الـتي تـوفرت لديـه، وإن كانـت كتبـاً بـسيطة ومختـصرة، إلا أنهـا لم تكـن تخـرج عـن القـصد و المراد،وهـو وضـع مكـة المكرمـة في إطارهـا التـاريخي مـن الوجهـة الدينيـة، بالإضـافة إلى ذلـك كـان يستـشهد، وفي أمـاكن متعـددة مـن رحلتـه، بالآيـات القرآنيـة والأحاديـث النبويـة الـتي كـان يكتفـي منهـا بـإيراد المعنـى دون اللفـظ، وهـذا مـنهج في البحـث، لأنـه لا يـورط صـاحبه في القـضايا الإسـلامية الـشائكة الـتي يجهلـها، ولا يـزج بـه في بحـار مـن الجـدل العقـيم، كمـا حـدث لباديـا في العديـد مـن المواقـف، وبالإضـافة إلى

الآيات القرآنية المستشهد بمعناها ولفظها اعتمد أرستارثو على بعض الكتب التاريخية ككتاب أبي الفدا ، الادريسي، وغيرهما من الكتب التي كانت متداولة في أوروبا ، لكن هذا المنهج لم يعصم الكاتب من الوقوع في أسلوب التعميم .

أما باديا ، فقد بدا في بعض صوره، التي طالت العديد من القضايا و المواقف، شديد التهجم على الوسط المكي، حيث نعته بنعوت لا تليق به كالجهل و الفقر و الأمية والبداوة وانتشار الأمراض و الأوبئة وعدم إلمامه بالعلوم الحديثة كالطب و الهندسة ، فإذا مرض الواحد منهم التجأ إلى السحر و الشعوذة، وقليل منهم من يتداوى بالأعشاب. ..أما الحياة الثقافية و التعليمية بمكة فقد ربطها بالمصلحة الدنيوية للسكان .. وموارد عيشهم . ومن صوره القاتمة تلك التي يقدمها حول مساكن مكة المكرمة ، ووضعية دورها الخربة الواقعة بالشوارع الخلفية من المدينة.وهذا ليس غريبا من الرحالة الأوروبيين إذ أغلب تقاريرهم وأدلتهم على البلاد العربية تتصف في معظمها باختفاء المعلومات الصحيحة ...، وهذا من شأنه أن يرسم صورة مشوهة ومضللة عن الإسلام والمسلمين،لأنها صورة ينقصها التحليل الموضوعي، ويغلب عليها النظرة المغلوطة من المواقف المسبقة .

لذا وجب مناهضة تلك التقارير و الرحلات، وتوضيح الأخطاء الموجودة فيها بالطرق العلمية السليمة ، مع حسن الأدب في خطاب الآخر، وهو الأسلوب الذي اتبعه السلف في الحوار مع أصحاب كل الملل و الأهواء، فالمسلم لا يسيئ حتى لما يعبده الأخر بالباطل، لقوله

تعالى : "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا من غير علم " [١] والمسلم لا يغش و لا يدلس ولا يقول الزور، وهو عادل حتى مع المخالفين .

ولتصحيح تلك المعلومات الخاطئة عن الإسلام و المسلمين ، هناك بدائل كثيرة منها : نقد تلك الأفكار الخاطئة و الرد عليها ، وطرح الرؤية الإسلامية الصحيحة ، ونشر ذلك كله عبر المنافذ والمنابر نفسها التي نشرت تلك الأفكار الخاطئة وأذاعتها.

أما ما كتبه بعض الرحالة المنصفين، فيحبذ نشر آرائهم للاستدلال بها ، لأن الفضل ما شهد به الأعداء.

***

(١) سورة الأنعام، آية ١٠٩.

المصادر والمراجع

١- الإسلام والمسلمون في المدونات الإخبارية الإسبانية . برنارد ريشارد مجلة هسبريس تمودة المجلد السابع ١٩٧١ ص ١٠٨

٢- الآثار الباقية في الأندلس و البرتغال. عبد الله عنان

٣- أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية تأليف إبراهيم صالح الخضيري. مركز البحوث و الدراسات الإسلامية .

٤- أخبار مكة محمد بن عبد الله الأزرقي

٥- أدب الرحلات .حسين محمد فهيم .عالم المعرفة العدد ١٨٨. يونيه ١٩٨٩.

٦- الأعلام للزركلي

٧- إعلام الساجد في تاريخ المساجد للزركلي

٨- أول رحالة إسباني يزور العلم العربي في مطلع القرن التاسع عشر.أحمد الطاهر مكي .

٩- بعثة الكابتين بوريل إلى البلاد العربية . جورج كايي باريس ١٩٥٣.

١٠- تاريخ مكة .باسلاما حسين بن عبد الله.

١١- تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .ابن بطوطة أبو عبد الله اللواتي طبعات مختلفة.

١٢- الحياة العامة في منطقة الحجاز من خلال رحلة دومنكو باديا. عبد الحفيظ حمان .مجلة التاريخ العربي .العدد الثالث و العشرون . صيف ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

١٣- رحلة السيد شو. لاهاي ١٧٤٣

١٤- رحلات الأوروبيين إلى شمال إفريقيا في مطلع القرن التاسع عشر رحلة دومنكو باديا نموذجاً عبد الحفيظ حمان .ضمن أعمال ندوة " مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي . الرياض أكتوبر ١٩٩٩

١٥- رحلة أرستارثو فرانسيسكو .طبعة مدريد ١٨٧٨

١٦- رحلات دومنكو باديا ثلاث مجلدات باريس ١٨٧٨م

١٧- الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة . سعيد ابن الأحرش .ضمن أعمال ندوة " مصادر المعلومات عن العالم لإسلامي . الرياض

١٨- رحلة في إمبراطورية المغرب، ومملكة فاس خلال ١٧٩٠ و ١٧٩١ سوزان تاسي باريس ١٨٠١

١٩- كتاب المحلى لا بن حزم القرطبي الأندلسي .

٢٠- سيرة الأمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأحمد عبد الغفور عطار

٢١- شفاء الغرام للتقي الفاسي

٢٢- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب .لمؤلف مجهول.تحقيق أحمد مصطفى

٢٣- مذكرات وتقارير عن المغرب الأقصى .بروسنو .مجلة هسبريس تمودة. المجلد الثاني . الملزمة ١ ص ٥ .

٢٤- معجم المؤلفين رضا كحالة

٢٥- المغرب العربي في تقارير الرحالة الإنجليز في القرن ١٦، ١٧، ١٨ . مجلة هسبريس مجلد ٩ ١٩٢٩. الرباط.

٢٦- المغرب في أدب الرحلات . بيدريك كاروني باريس ١٩٣٦.

٢٧- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي.


UMM AL-QURA UNIVERSITY
مطابع جامعة أم القرى